حاجى بابا إصفهانى

للكاتب الانجليزى "جيمز موريه"
بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

الفصل الحادى والستون

عقوبة حاجى بابا تقع على نادانه

ألبث في مخبئى عشرة أيام طوال متعبة دون أن يصلني خبر عن ملا نادان وقد خشيت أن يكون حظه العاثر قد لازمه أو أن الأمور لم تجر فى المجرى الذى كان ينتظره . ولم يكن بين همذان والقرية التى أنا فيها اتصال كبير . وقد بدأت أيأس من رؤية جوادى وما عليه من سرج ثمين ويئست كذلك من رؤية ملابسى، إلى أن حدث فى مساء أحد الأيام أن فلاحاً كان قد ذهب أخيراً إلى همذان ليشتغل فى الحقول وعاد منها عابساً، وألقت كلماته التى رواها بصيصاً من النور على مخاوفى فقد قال : إن قلقاً عظيماً حدث لقدوم نازا كشى وقبضه على ابن صاحب الضيعة وأخذه الجواد وحمله أسيره إلى العاصمة متهماً إياه بقتل شيخ العلماء فى طهران . وإنى أترك للقارئ الحكم على ما شعرت به عند سماعى هذه القصة فقد أدركت للسر فى صمت الملا نادان . ورغم أنى شعرت بأن لا خوف على فى ذلك الوقت فإنى كنت أشك فى دوام هذا الشعور وأعلنت فى القرية أنى استرجعت كامل صحتى واستأذنت مضيفى وأسرعت إلى همذان لأتحقق مما رواه لى الفلاح

وكان والد نادان معروفاً فى المدينة فلم يصعب على أن أهتدى إلى داره وقد أحجمت عن دخول الدار والاستفهام عما تم فى أمر نادان، ولكنى ذهبت إلى حلاق مجاور للدار لغرضين الأول أنى أردت أن أقص شعر رأسى ووجهى، والثانى وثوقى أنه هو الذى يمكن أن يروى لى حقيقة ما حدث بحذافيره . وقد صدق ظنى فإنى وجدت الحلاق ثرثاراً، ولم أكد أسأله عن أخبار اليوم قائلاً له إنى أجهل تلك القصة العجيبة التى حدثت أخيراً والتى يتحدث عنها القوم بملء الدهشة حتى تراجع خطوتين إلى الوراء متعجباً وقال : « من أين أتيت إذن حتى خفيت عليك قصة ذلك الأبله الملا نادان ؟ إنه لم يكتف بقتل شيخ العلماء حتى لبس ثيابه ولم يكفه كل ذلك حتى سرق جواداً من أكرم جياد الحاكم، يا له من نذل خسيس يأكل المال الحرام ! »

فرجوت من محدثى أن يقص على كل تفاصيل القصة التى تظاهرت بجهلها جهلا تاماً فسرد لى ما يأتى من غير انتظار لتكرار السؤال :

« منذ ثمانية أيام تقريباً جاء هذا الملا إلى بيت أبيه راكباً جواداً مطهماً ولابساً حلة تليق بعظيم من العظماء أو قائد من القواد، وليس برجل من رجال الدين فقد كان عليه شيلان من أجود الأنواع وكان يشبه حقيقة شيخ العلماء . وأحدث ظهوره بهذه الحلة الأنيقة وهذا الشكل البديع تأثيراً غريباً إذ من مدة وجيزة قبل حضوره كان قد شاع عنه أنه أتى بعمل أغضب الشاه فطرد من طهران طرداً قبيحاً

وقد ترجل عن جواده فى تيه وعجب، وحين سئل عن طرده من العاصمة لم يأبه للأمر كثيراً وقال : إنه أخبر بصفة سرية أن غضب الشاه عليه وقتى وأنه للتقليل من وقعه أهدى إليه هذا الجواد

وصدق كل إنسان روايته واستقبل فى منزل أبيه بالاجلال والاحترام ، ولكن لسوء حظه أنه كان فى اليوم التالي يتأهب لركوب الجواد وإذا بنازا كشي يدخل المنزل وكان قد وصل من طهران ثم أخذ ينظر إلى الجواد ويفحص اللجام والسرج الذهبيين ثم استفهم عن اسم صاحب الجواد فأخبروه أنه اللا نادان

قال مغضباً : « اللا نادان ! من هذا الكلب الذى تقولون عنه ؟ إن هذا جواد سيدى الحاكم ومن يقول بغير ذلك فقد كذب سواء كان ملا أو غير ملا »

وفى تلك اللحظة حاول اللا أن يختبئ عن أنظار النازا كشي وهو أحد الذين أجلونا عن العاصمة يوم عاره وفضيحته ، وكان فى لبس ملابس شيخ العلماء وعمامته ما أظهر أمام عينيه فظاعة جرمه . ولمحته عين الضابط فصاح بأعلى صوته : « اقبضوا عليه ! أزهقوا روحه ! إنه هو نفس الرجل ! أقسم برأس على أن هذا قاتل شيخ العلماء »

وكان النازا كشي فى تلك اللحظة قد ترجل وقبض على اللا بمساعدة أتباعه والحضور الذين أدركوا أنه يعمل تنفيذاً لأوامر الحكومة وقد أخذ اللا يبرئ نفسه بالقسم يتلوه القسم على أنه لم يقتل ولم يسرق وأنه مستعد أن يحلف على المصحف الشريف أنه برىء

وقص الحلاق ما دار بين اللا وبين النازا كشي بصدق وأمانة ، وكانت النتيجة أن أخذ الأخير اللا معه إلى طهران رغم توسلاته وتوسلات والده ورجاء أصدقائه ومساعيهم . وقد شعرت بما لم يشعر به إنسان من الحسرة والحزن على ما ألم بصاحبي من الأمور التى رواها لى الحلاق وحزنت حزناً شديداً على فقدى للجواد والملابس الغالية ولكننى حمدت الله على سلامتى حين فكرت فى أننى لن أسأل عن حوادثى الأخيرة إذا قطع رأس اللا نادان، وشعرت أننى لا أزال فى حفظ العناية وسعفاء الحظ بينما قدر على اللا أن يكون شقياً منكوداً، وإلا فلماذا استبدلنا ملابسنا ؟ ولماذا أخذ جوادى فى وقت لم أجد فيه بدأ من الخضوع لما طلبه منى ؟

ولكن شعورى بأن اللاسينال عقاب ما لم يجن بدلا منى جعلنى أحس ولو مؤقتاً بالخطر ما دمت فى إيران . ولذلك صممت على أن أتابع خطتى الأولى وأن أترك إيران دون إبطاء ؛ وعزيت نفسى عن فقدان الجواد والملابس بما بقى لى من المال وهو الجبة والتسعون طوماناً . وهذا المبلغ كاف لما أحتاج إليه الآن . وبعد ذلك تذكرت أن الله قادر على كل شىء فأملت فى المستقبل . وقديماً كانت هذه الثقة بالله تعزية وسلواناً لكثير من التعساء أمثالى وشعرت أنها ستقينى ما خبئ من مصائب خفية

الفصل الثانى والستون

صاحبى بابا يسمع بقية قصة الحمام فينزعج

عزمت على أن أنزع ثوب الشاعر إذ لم ينلنى منه خير وتزييت بزى التجار ولحقت بقافلة كانت ذاهبة إلى كرمان شاه واتفقت مع رئيسها على استئجار بغل هزيل مقابل أجر تافه . ولما لم يكن لدى من البضائع غير ما أحمله على ظهرى فقد اقتنعت به . ووصلنا إلى كرمان شاه فى اليوم السابع من رحيلنا وهنا كان لابد لى من البحث عن قافلة أخرى . ولما سألت قيل لى إن ذلك يستدعى شهراً من الزمن

لأن اللصوص الأكراد يغيرون على الحدود فلا تقدم قافلة على اجتيازها إلا إذا كان عدد أفرادها كبيراً

ولكن قيل لي إن قافلة من الحجاج قامت قبل وصولنا بيوم واحد إلى كربلاء وأنه يمكنني بقليل من الجهد أن ألحق بها قبل أن تصل إلى المنطقة التي يهددها الأكراد فلم أتردد في اختياري، ولحقت بالقافلة بعد ما خبأت مالي في حزامي ولم يكن معي غير عصا غليظة ...

وفي مساء اليوم الثالث وبعد أن أنهك التعب قواي رأيت عن بعد نيراناً يتصاعد دخانها فشرحت صدري رؤيتها وقصدت إليها وتبينت حين اقتربت منها بغالاً وماشية ترعى في السهل المنبسط فأدركت أنني لم أكن مخطئاً حين حسبت القافلة قريبة

وشاهدت حين اقتربت من الوهاد التي تكدست فيها الأحمال خيمة صغيرة بيضاء منصوبة في ناحية غير بعيدة وقد دلني شكلها على وجود حجاج من ذوي المكانة بين أفراد القافلة وأنهم يصحبون نساءهم لأنني رأيت هودجاً على مقربة من الخيمة فتقدمت من رئيس القافلة كأحد الحجاج، ورأيت منه استعداداً تاماً لاعطائي بغلا يحملني في سفري

وأردت ألا ينتبه أحد لوجودي نظراً لحالتي السيئة التي كنت فيها غير أن الخمسة والتسعين قطعة ذهبية التي في حزامي جعلتني لا أستطيع حبس خيلائي وكظم زهوي كعادة مواطني الايرانيين وشاهدت بين الأحمال على مقربة من مكاني أكياساً عديدة خيطت على أجسام مستطيلة منتشرة على الأرض أزواجاً بشكل يدل على أنها كانت محمولة على ظهور الجمال. ولما كان منظرها لم تألفه عيناي فقد سألت عنها فقيل لي إن بالأكياس جثثاً يراد نقلها إلى كربلاء، وقال لي قائد القافلة وكان رجلا كثير الكلام زكي القلب كعادة رجال القوافل من أمثاله

« يظهر لي أنك غريب وإلا لما سألت عن أمر معروف مشهور. إننا نحمل أشياء عزيزة إلى كربلاء»

فأجبته: « نعم إنني غريب قادم من جهة بعيدة ولا علم لي بشيء مما تقول فحدثني بالله ماذا تنقلون إلى كربلاء »

فقال محدثي: « ما هذا ؟ ألم يصل إلى علمك شيء عن مقتل اللاباشي ؟ أما سمعت كيف فارق الحياة في الحمام وكيف ظهر شبحه بعد ذلك ممتطياً جواداً ثم ظهر في منزل الحرم وكيف أن ذلك الشبح اختفى على جواد من جياد الحاكم ؟ أين كنت تعيش أثناء وقوع هذه الحوادث ؟ »

قال ذلك وهو يشير بيديه ويهز كتفيه

أرعبني ما قاله الرجل فتظاهرت بالجهل وطلبت إليه أن يشفي غليلي عن تلك الأمور التي تحدث عنها، فأجابني إلى ما طلبت بحالة لولا أنني كنت متورطاً في نفس تلك الحوادث لأثارت عجبي ودهشتي، قال: « ثق أولاً أنني أقص عليك أموراً حقيقية لا مجال للريب في صحتها لأنني كنت في مكان وقوعها في الوقت الذي وقعت فيه. ذهب شيخ العلماء في مساء أحد الأيام بعد أن أدى فريضة المغرب إلى الحمام ثم رجع إلى داره محاطاً بأتباعه ودخل إلى خلوته لينام تلك الليلة في جناح الحرم

ولست في حاجة إلى إخبارك بأن معظم حمامات إيران تفتح أبوابها للنساء أول النهار إلى ساعة معينة منه وبعد ذلك تخصص للرجال

في صباح اليوم التالي لليوم الذي استحم فيه

اللا باشى ذهبت زوجته بين أتباعها وعبيدها إلى نفس الحمام، وكان ذهابها عند شروق الشمس وكانت هي ومن معها أول من دخل الحمام فى ذلك اليوم

ولشدة احترام أتباعها لها لم تستطع إحداهن أن تتقدمها إلى مغطس الماء الساخن، وكان لا ينير قبو الحمام غير شعاع الفجر، فنزلت زوج اللا باشى إلى المغطس فى ظلام دامس، فتخيل رعبها وخوفها حين تقدمت خطوتين فى الماء فوقعت يدها على جسم من اللحم عائم

ولم تستطع السيدة إلا أن تصرخ صرخة حادة وإلا أن تسرع إلى الخروج من الماء ثم أغمى عليها من فرط ما نالها من الرعب

وتخيل ذعر الخادمات مما حدث فقد كانت كل واحدة منهن تتقدم وفى يدها مصباح لترى السبب فى رعب سيدتهن ثم لا تلبث أن تصرخ صرخة وترتد مذعورة صوتية إلى الوراء ، ولم تتحقق واحدة منهن ذلك الجسم العائم فى الماء ، وأخيراً تشجعت رئيسة الخادمات العجوز ونظرت متجلدة إلى المغطس . ولشد ما كانت دهشتها حين رأت أن الجسم العائم جثة رجل ثم تبع ذلك صرخات عديدة وصياح حاد أعاد رشاد زوج اللا إليها وجعلها تشارك خادماتها، ولكنهن لم يعرفن الجثة التى انتفخت وتغير لونها ثم جيء بمصباح ونظرن إلى وجه الجثة فصرخن جميعاً : « إنه اللا باشى ! إنه اللاباشى »

وعادت السيدة إلى إغمائها وبدأ الرقيقات فى صراخهن ، واختلط حابلهن بالنابل حتى ظن من رآهن أنهن فى يوم القيامة . غير أن إحدى الخادمات قالت فى وسط ذلك الصراخ والعويل الذى اشترك فيه جميع النسوة : لا يمكن أن يكون هذا سيدنا فقد رأيته بعيني رأسي يعود من الحمام سالماً وأصلحت له الفراش وأنا على يقين أنه نام بعد ذلك فيه . وليس من الممكن أن يكون نائماً فى فراشه فى نفس الوقت الذى يكون فيه ميتاً فى هذا الحمام . كلا ! هذا إنسان غيره بلا ريب »

وقد زادت هذه اللاحظة من رعب النسوة وذعرهن عن ذى قبل لأنهن تصورن أن من رأته الخادمة كان بلا شك عفريت اللا باشي

وكانت زوج اللا قد عادت إلى رشدها فقالت مشيرة إلى وجه الجثة : « أنظروا إلى هذا الخدش الذى أحدثته فى وجهه بالأمس فقط »

وقالت إحدى الخادمات : « وهذا مكان خصلة الشعر التى اقتلعتها من ذقنه »

وسببت هذه الذكرى اللذيذة انهمال الدموع من عيني السيدة الأرملة فلم يوقفها إلا تأكيد الخادمات بأن اللا باشى لا يزال على قيد الحياة . وقالت لها خادمة : « من إذن الذى أوصد الباب من الداخل وأمرنى بالانصراف ؟ ومن الذى سمعنا غطيطه ؟

وقد اقتنعت الخادمة بصحة قولها فلبست ملابسها وأسرعت إلى الخارج لترى سيدها نائماً فى حجرته دون شك ولا ريب

وهنا قالت إحدى الخادمات مشيرة إلى الجثة : « ولكن إذا كان سيدى نائماً فى منزله فمن هذه الجثة التى نراها »

فقالت أخرى : « يجب أن يكون هذا عفريت سيدى إذ لا يعقل أن يكون الانسان ذا بدنين يعيش بواحد ويموت بالآخر »

وقالت ثالثة ذات صوت أجش : « هذا غريب

مدهش لا يتصوره العقل »

وكان قد دخل الحمام فى ذلك الوقت نسوة أخريات للاستحمام . وبينما كان نسوة شيخ العلماء يفكرن فى أمر سيدهن ويفرضن الفروض إذ بالجارية التى كانت قد ذهبت لتتحقق من وجود الملاباشى فى منزله قد عادت وأخبرتهن بأنها لم تجده ولم تجد غير آثار نومه على الفراش فتعالت الصرخات وارتفع صوت العويل ، ونما الخبر إلى خارج الحمام فتجمع حوله عدد كبير وطلبوا السماح بدخول المكان . وقبل أن يتمكن النساء من لبس ملابسهن وستر أجسادهن العارية امتلأ الحمام بالرجال ولم يحدث قط أن حماماً فى طهران اختلط فيه الرجال بالنساء كما حدث ذلك اليوم

وكان المنظر عجيباً من نسوة يندبن ويبكين ، وأخريات يصرخن ويلطمن ويجرين فزعات من رؤية الرجال لهن وهن عاريات . ثم جاء أقارب المرحوم وأصدقاؤه ومعهم الخاسلون الذين أخذوا الجثة إلى مكان آخر فغسلوها وحنطوها وأعدوها للسفر إلى كربلاء حيث تدفن فيها كما تقرر من ذى قبل . وأبدت زوج القتيل رغبتها فى مرافقة الجثة . واستأجر القوم بغالاً لهذه المهمة . فى هذه الخيمة التى تراها هناك زوجة القتيل مع جواريها ، وأما الجثة فهى بين تلك الأكياس . وأما الجثث الأخرى التى تراها فهى جثث من ماتوا فى طهران وفى البلدان التى مررنا بها أثناء السفر . وقد جئ بها لتدفن فى كربلاء فى كرامة شيخ العلماء إذ قد يشفع فيها يوم القيامة ليدخل أصحابها الجنة »

وهنا سكت محدثى وكنت قد ألجم لسانى الخوف الذى استولى علىّ أثناء سرد القصة فلم أتكلم ، وفكرت فى أننى قد أردت الخلاص من خطر داهم فألقيت بنفسى فى ذلك الخطر ، إذ قد يعرفنى خادم من خدم شيخ العلماء . ومنهم من كان بينى وبينه معرفة وصحبة فيستكشف أمرى ويظهر تنكرى

وأردت أن أعرف هل لاحظ القوم ملابسى التى كنت تركتها فى ركن من أركان الحمام ، فقلت لرئيس القافلة : « ماذا تم بعد إخراج الجثة من الحمام ؟ »

فأجابنى : « لست أذكر ما حدث ، على أننى أعلم أن الروايات اختلفت وأن الاشاعات تعددت وأن كل رجل كان له رأى يخالف رأى الآخر ، فقال البعض : إن شيخ العلماء بعد أن قتل غريماً رؤى فى خلوته وبعد ذلك نام فى فراشه . وقال البعض : إنه ظهر فى الصباح التالى فى منزل رئيس الجلادين وذهب ممتطياً جواداً من خيرة جياده . وقد أظهر رئيس الجلادين نفسه ورقة عليها خاتم الملاباشى وفيها إذن بضرب النبيذ . وبالاختصار فإن اختلاف الراويات وتعددها جعلا المرء لا يعرف أيها يصدق ، غير أن القوم ارتبكوا وتحيروا فى تعليل خروج الملاباشى حياً من الحمام (وبذلك شهد جميع خدمه وشهد صاحب الحمام) ثم وجدوه بعد ذلك فى المغطس غريقاً ، وكلما ازداد الناس فى البحث وأكثروا من التعليل زادت حيرتهم وكثر ارتباكهم إلى أن استكشف أمر ألقى على تلك الظلمات قبساً من الضياء إذ وجدوا بعض الملابس الممزقة فى ركن مظلم من أركان الحمام ، واستدلوا فى غير عناء على صاحب تلك الملابس وهو شيخ مأفون يدعى حاجى بابا كان تابعاً للا تادان عدو شيخ العلماء اللدود والذى اشتهر بإثارة الشغب والهياج .

ولما علموا ذلك صاح كل واحد من الموجودين: « حاجي بابا هو القاتل ! لا ريب في أنه هو الذي قتل العالم الأكبر ويجب أن ينال القاتل جزاءه » .

وأخذ جميع سكان المدينة يبحثون عن حاجي بابا وقد قال كثيرون إن نادان هو القاتل .

وأرسلت الرسل البحث عن نادان وحاجي بابا وإحضارهما إلى طهران حيين أو ميتين، ولست أرجو أكثر من أن أصادف واحداً منهما فأنال مكافأة تعادل أجرة جميع هذه البغال المسافرة إلى كربلاء »

أترك لكم جميعاً أن تتصوروا ما كنت أشعر به عند سماعي ذلك الحديث إذا علمتم أنني لم أتعود مقابلة الخطوب والمكاره بقلب جريء وأنني طالما فضلت سرعة قدمي وخفتي في الفرار على أية وسيلة أخرى من وسائل الأمن والسلامة . ولكنني أدركت أن التقهقر في موقفي الحاضر لا يجديني نفعاً بل هو شر من الثبات والتقدم إذ لم يبق بيني وبين حدود إيران غير مسافة قليلة أسير بعدها في أرض حكومة أخرى فعزمت على أن أخفي نفسي ما استطعت وأن أسير في طريق يحذر من يعلم إنه محاط بالخطر من كل ناحية

الفصل الثالث والستون

حاجي بابا يستكشف أمره ويقبض عليه غير أنه يحسن حظه يمكنه من الفرار

تابعت القافلة سيرها في الصباح التالي . ولكي أتجنب الأنظار اخترت أن أسير بين البغالين والحالين وتقدمتنا زوجة شيخ العلماء في هودجها ومعها أتباعها ومن خلفهم الجمال التي تحمل الجثث وبعد ذلك باقي القافلة من بغال محملة تسير في خط متعرج طويل في طريق كربلاء

كنت أحسد كل ذي سحنة منكرة وملابس خلقة وهيئة رثة لخوفي أن يكون حسن طلعتي سبباً في اتجاه الأنظار إلي . وقد خفت الاقتراب من خدم السيدة زوجة المرحوم خوفاً شديداً فكنت أدير وجهي إذا ما نظروا إلى الجهة التي كنت فيها وذلك رغم شوقي إلى أن أعرف هل فيهم أحد من معارفي. ومر اليوم الأول من رحيلنا دون حدوث أمر فوضعت رأسي على وسادة من الأمتعة التي كنا نحملها ونمت الليل كله نوماً هادئاً . وكذلك مر اليوم الثاني وحملني اعتقادي بحسن حظي على أن أبحث عن رفقاء في المسير أفضل من سائق البغال والحالين وأخذت أحادث أسقفاً أرمنياً وأتبسط معه حتى جعلته يشعر بواجب الشكر والامتنان لرجل مسلم يعيره شيئاً من اهتمامه . ومر في هذه الأثناء بجانبي أحد الخدم الملاعين فوجف قلبي خوفاً من أن يعرف حقيقتي . ولو أن اللاباشي نفسه ظهر في هذا الحين لما كان انزعاجي من رؤيته أكثر من انزعاجي عند ما رأيت هذا الخادم . وأدرت وجهي إلى جهة أخرى غير أن الرجل مر ولم يتنبه لوجودي وأعادت هذه الحادثة إلى نفسي الحذر الذي كدت أتجنبه فعزمت على أن أرجع إلى موقفي الأول بين البغالين وتركت الأسقف يفكر في شئونه

وكنا نسير في اليوم التالي بالجهة غير المأمونة التي تقيم فيها عصابات الأكراد، وسيكون كل فرد في شاغل من خوفه على نفسه عن أن يفكر في . ومتى اجتزنا تلك الجهة أصبحنا في أرض غير أرض إيران . ويمكنني إذا عرف أمري أن ألجأ إلى حماية الأتراك

وجاء ذلك اليوم المخيف : اليوم الذي لن أنساه

طول عمري والذي سأظل أذكره ما دمت أذكر شيئاً من حوادثي . وذلك أن القافلة مشت مشية عسكرية وشهر كل من كان معه سلاح سلاحه . وذكرني ذلك النظر بمنظر آخر يشبهه وقد قصصته في جزء آخر من هذا الكتاب حينما كنت في صحبة عثمان أغا ولاتينا جلة التركمان . وما أشبه خوفي ورعبي في هذه الحادثة بخوفي ورعبي في تلك . وإني أصدقكم القول أن الزمن لم يغير من عزيمتي ولم يقو أعصابي ولم يسكن فؤادي

سارت القافلة في نظام وعلى استعداد لكل طارئ تحت قيادة جاويش وتقدمها الدليل فكوّن هو وأتباع زوجة الملا باشي ما يشبه طليعة الجيش

وأما أنا فقد كان الخوف على نفسي أكثر من سبب واحد . ولذلك اختلطت برجال القافلة وحمدت الله على أن ليس معي من المتاع غير المال الذي أحمله في حزامي

وكنا نسير في سكون تام فلم يكن يسمع إلا صوت أجراس القافلة . وسبحت في بحر من الخيال وجعلت أفكر فيما سأفعل بالخمسة والتسعين طومانا عند ما أصل إلى بغداد إذ حانت التفاتة مني فرأيت دليل القافلة قادماً إلى بصحبه أعجمي حسن الهندام وقد أشار الدليل بيده نحوي وقال لرفيقه : « هذا هو الرجل نفسه »

فقلت لنفسي : « ورأس على لقد قلب الحظ لي ظهر المجن وتنكر لي الغدر بعد أن صافاني » .

نظرت إلى رفيق الدليل ولم ألبث أن تبينت فيه شخص عبد الكريم الذي استوليت منه على مائة الطومان في قرية سيرابا بواسطة الخطاب الذي كتبته وبصمت عليه بخاتم المرحوم الملا باشي .

وكنت على وشك الترحم على نفسي غير أن الدليل خفف من جزعي وقال : « لقد كنت آخر رجل التحق بالقافلة وقد تستطيع إخبارنا عن المكان الذي يظن أن اللص على خان موجود فيه على الحدود »

فأجبته قلقاً مضطرباً ، بيد أني جعلت أطيل النظر إلى عبد الكريم وكذلك أخذ هو يحدق في بعينيه اللتين ترسلان النظر حاداً نفاذاً فكادت تنخلع أضلاعي ويثب فؤادي من الرعب .

وظل عبد الكريم ينظر إلي كمن كان يشك في أمر بينما كنت أحاول الفرار من أمامه . غير أنه لم يلبث أن استجمع أمره وصاح : « وجدته ! وجدته ! إنه هو بعينه ! إنه الرجل الذي ضحك على ذقني وسلب مائة الطومان » .

ثم وجه الخطاب إلى الواقفين حولنا وقال : « إن كنتم تريدون لصاً فها كم هو اللص . اقبضوا عليه بحق النبي الكريم ! »

فبدأت أحتج احتجاجاً شديداً وأنكر التهمة التي ينسبها إليّ عبد الكريم وكان من المحتمل أن أنجح في إقناع الواقفين حولي بأني اتهمت ظلماً وعدواناً وأني بريء لولا أن جاء لسوء حظي في تلك اللحظة المأذون الشرعي وعرفني لأول وهلة وناداني باسمي فانتضح أمري واتهمت بقتل شيخ العلماء وشغلت هذه الحادثة كل من كان في القافلة وأحدثت لغطاً شديداً وجلبة وضوضاء حتى نسي الخوف من قطاع الطرق الأكراد إلى حين ، وأقبل على كل فرد في القافلة ينظر إلي سحنتي ويحدق في وجهي .

قبض علي وربطت يداي إلى ظهري وأوشكت أن أسحب على وجهي فأعرض أمام زوجة شيخ

العلماء وإذا بالحظ يساعدنى والقدر يمهد لى سبيل الخلاص

سمعت فجأة صرخة عظيمة دوت من بعد ، ورأيت كوكبة من الفرسان تنحدر إلينا من جانب التل المجاور فأدركت وأنا أبتهل فرحاً أن هؤلاء الفرسان هم الأكراد الذين ألقوا الرعب فى القلوب وخشيتهم القوافل

سرى الخوف والذعر فى القافلة كلها وحل فيها الاضطراب والارتباك فلم تستطع المقاومة ، إذ كان يعوزها الأقدام والقوة فهرب راكبو الدواب وخاف البغالون على بغالهم فقطعوا حبال الأحمال وتركوها منتشرة فى السهل فى متناول يد اللصوص وتحت رحمتهم ، وكذلك ألقى ما كان على ظهور الجمال من الجثث فكانت ترى مبعثرة فى كل مكان وقد لاحظت أن الكيس الذى فيه جثة الملا باشى سقط فى نهير هناك وكأنما القدر لم يكتف باغراق شيخ العلماء حتى أغرق جثته . وبالاختصار فقد عمت الفوضى فى القافلة وانتشر الهياج وبذلك انفردت بنفسى فخلت وثاقى بسهولة ولاحظت أن الأكراد وجهوا جل اهتمامهم إلى الهودج ومن حوله من الأتباع لأنهم توقعوا أن يجدوا به من هو خليق بالأسر من ذوى المكانة ، وسرنى وأثلج صدرى أن أجد من كانوا منذ لحظة يسيرة يدبرون لى وسائل الخراب والدمار وينظرون إلىّ كمن تقضى عليه أصبحوا هم أنفسهم فى نفس الحالة التى اختاروها لى وحل بهم الخطب الذى كنت فيه والمصاب الذى نجوت منه

ولقد ذهب تهديد أتباع الأرملة ووعيدهم سدى ولم تجد مقاومتهم ولم يمنع صياحهم غلاظ الأكباد متحجرى القلوب ، مانع عن السلب والنهب وأسر من ينتظرون له فدية . وعلمت أن نجم حياتى قد عاد إلى تألقه وإشراقه ، لأن من يملك متاعاً أو يلبس ثياباً تنم على نعمة وثراء قصد إليه اللصوص ، أما أنا وبغلى الحقير فكنا فى حالة لا تسترعى أنظارهم ولا تستدعى أى اهتمام ، فسرت بلا مشقة ولا عناء فى طريقى إلى مقصدى وليس دونى عائق إذ لم يكن لى بين الجثث المنتشرة هنا وهناك قريب أو صاحب أدفع عنه فدية ، وكنت حراً كالهواء طليقاً كالماء ، فتابعت طريقى حتى تخلصت من تلك الأخطار ونجوت من المصائب التى كانت تحيط بى بمعجزة هى أشبه بالسحر قائلاً : « بارك الله فى قدر يرعانى وحظ يخدمنى وتوفيق ليس بعده من توفيق »

الفصل الرابع والستون

الوصول الى بغداد . مقابلة حاجى بابا السيدة الأولى
اتجاه نظره للتجارة

تركت أرملة الملا باشى وعبيدها وأتباعها بين أيدى الأكراد وأسرعت فى طريقى لا ألوى على شىء محاذراً أن أحادث أحداً بعد الذى حدث أخيراً بل اتبعت فى سيرى خطة لا تسترعى الأنظار ولا تثير الاهتمام

رأيت فى طريقى بعض من أفلتوا من الأكراد ولكنهم لم يبتعدوا عن مكان الحادثة كثيراً إذ كان لكل منهم بغية فى القافلة فحاموا حولها رجاء التمكن من متاع أو مساعدة صديق

وكنت أنا الوحيد الذي لا ناقة له فى القافلة ولا جمل فبعد أن سرت فرسخين أو ثلاثة أمنت الطريق الذى لم يشاركنى فيه أحد ومرت بخاطرى حوادث حياتى كلها واستعرضت أمام مخيلتى

ما شاهدت وما قاسيت وانتهيت إلى النتيجة الآتية:

قلت في نفسي: « مادمت يخدمني الحظ ويساعدني القدر فلأسعين إلى مطامعي ولأجرين وراء أغراضي ورجوت أن يكون فشلي الأخير مقدمة لتحقيق آمالي وإدراك ما أطمع فيه من نعمة وثراء »

وقلت: « في حزامي خمسة وتسعون طوماناً وطريق العمل مفتوح أمامي فلو أن الملا نادان تقطع جسمه على آلة التعذيب وأرملة شيخ العلماء قبض عليها الأكراد وقتلوها فماذا يمنعني من العجب في مشيتي والتيه في مسيري كأحسن رجل في إيران ؟ »

وأخيراً رأيت قباب بغداد ومبانيها ثم وصلت إليها فدخلتها غريباً جاهلاً أحياءها، وكنت أعلم أنني أستطيع العثور على خان في كل بقعة من المدينة ولكنني تركت البغل يقودني حيث شاء

وكان البغل على دراية تامة بطرق المدينة وشوارعها فوصل بي إلى خان كبير لاشك أنه كان معتاداً أن يبيت فيه في رحلات القوافل . وعند اجتيازه عتبة الخان نهق بضع نهقات منتظراً سماع الجواب من رفاقه في اصطبل الخان

وكنت أشعر بضيق وانقباض صدر، وزاد في اغتباطي وسعادتي، إن صح أن يسمي ما كنت أشعر به سعادة أنني أبصرت جماعة من مواطني في رحبة الدار، ولم ألبث أن أدركت أن الخان مكان تلاقيهم

جعلت أخفف عن نفسي بقولي إن مظهري لا يدعو إلى الالتفات ولا يجلب النظر وكم كانت خيبتي حين ظهر أن الأمر على عكس ما ظننت إذ ما كدت أترجل حتى وجهت إلى الآلاف من الأسئلة فقد كان قوم ينتظرون القافلة من آونة لأخرى وكان التجار ينتظرون وصول بضائعهم بفارغ الصبر وظن الجميع أن في إمكاني الافضاء إليهم بما يودون

أجبت إجابات تناسب المقام غير أنني عزمت على أن أترك قوماً فضوليين لا يفرغون من أسئلتهم كهؤلاء القوم وأن أرحل عنهم إلى مكان آخر أختفي فيه

وعلى ذلك تركت بغلي تحت رحمة الأقدار معللا النفس بأن صاحبه لايلبث أن يحضر ويأخذه ويمت ناحية أخرى من نواحي المدينة

بدأت بإتمام تنكري فتبرت فللنسوتي المصنوعة من جلد الغنم بما يضعه أهل المدينة على رؤوسهم وهو كيس طويل أحمر اللون من قماش يتدلى أعلاه إلى الظهر . وربطته على رأسي بقطعة ملونة من الحرير وابتعت ثوباً قديماً من الثياب التي يلبسها الأتراك عادة . ولما لبسته فوق قفطاني ظهرت كالعثمانيين سواء بسواء ثم أكملت هندامي بحذائين لونهما أحمر

وبعد ذلك فكرت في أن أقدم نفسي إلى عائلة سيدي القديم عثمان أغا لأنني بواسطتها أستطيع أن أتصل بمعارف في المدينة وأن أتقدم في ميدان التجارة

وانطلقت في المدينة أسير في أسواقها لأسأل عن ضالتي وكنت أقف على كل بائع جلد إذ كنت أذكر أن صاحبي مغرم بتجارة الجلود، وذكرت أيضاً كل ما كان يقصه على أثناء رحلاتنا حتى تصورت أنني أصل إلى باب داره من غير سؤال

وأخيراً انتهت حيرتي هذه بأن وقفت أمام حانوت كبير من حوانيت البخاريين وسألت أصحابه عما إذا كانوا يعرفون شيئاً عن رجل اسمه عثمان أغا

من بغداد ، فسمعت صوتاً تعرفه أذناى حق المعرفة يجيبني : « من يريدني ؟ أنا عثمان أغا »

وتصور أيها القارئ مقدار سروري ودهشتي فقد كان المتكلم هو نفس عثمان أغا ذلك الشيخ الهرم ... دهشت غاية الدهشة من مقابلتي إياه كما دهشت سابقاً من رؤيتي له في طهران ، وكذلك دهش هو من مقابلتي وقصصت عليه من حكاياتي ما رأيت أن أقصه عليه ضروريا وروى لي هو الآخر حديثه الآتي :

ترك عثمان أغا طهران وفي عزمه مواصلة السير إلى الآستانة لجعلها مركزاً لتجارته ولكنه سمع أن أخطاراً عظيمة تهدد المسافرين بين أريفان وأرضروم إذ لا يسلم المار في تلك الجهة من السرقة ففكر في زيارة بغداد ووصل إليها وهي موطنه الأصلي بعد غيابه عدة أعوام ، وقد وجد أن ابنه قد كبر وبلغ مبلغ الرجال بعد أن أقام مأتم والده الضائع واتخذ في الأسرة مركزه بين والدته وأخته . ولكنه بعد أن رجع والده لم يظهر أي امتعاض بل امتثل كمسلم صحيح الاسلام للآية القرآنية الشريفة التي تحض على البر بالوالدين وتوجب ألا يقول لهما أف ولا ينهرهما ويقول لهما قولا كريما

ثم أضاف محدثي إلى ذلك أنه وجد زوجته حية ترزق وابنته في سن يؤهلها للزواج ، وبعد أن انتهى الرجل من سرد حوادثه على التفت ونظر إلى نظرة شزراء لم أعهدها فيه من قبل وقال لي : « يا حاجي بابا قل لي بحق نبينا محمد ما الذي دفعك إلى تزويجي من تلك الشيطانة الخبيثة في طهران ؟ هل أردت أن تجعلني أنسى متاعبي وهموى أم أجددها بين ذراعي تلك العجوز القبيحة ؟ وحق ما بيننا من ألفة قديمة وصداقة متينة لقد كانت أيامي معها أتعس وأنحس من الأيام التي قضيتها في أسر التركمان ! هل يليق بك أن تعامل صديقاً قديماً هذه المعاملة ؟ »

فما كدت له أني لم أكن أسعى إلا إلى سعادته ، ولم يكن في الأمر غاية أخرى ، وأني حسبت أن تلك السيدة التي كانت جارية للشاه ذات جمال ومحاسن تستبقيها إلى آخر أيامها ، واعتقدت أنها بذلك فوق ما يتمنى رجل مثلك قضى أعواماً عديدة في رفقة الجمال.

فصاح صاحبي : « جمال ! أتقول الجمال ؟ إن تلك الجمال لو قورنت بالشيطانة التي أبتليت بها لكانت مثل الملائكة . ليتك زوجتني من ناقة بدلا منها ، فقد كان في مكنة ذلك الحيوان التعس أن يكون هادئاً في عشرتي سا كنا في مصاحبتي ، وأن يتركني أذهب حيث أشاء ، وأفعل ما أريد . بيد أن تلك الحية الخبيثة لم تجد ما يقطع وقتها من غير الترنم بأنها أسعدتني وشرفتني . لأنها كانت تقود الشاه من ذقنه وتضطره إلى إجابة رغائبها بخفة روحها ورشاقة قدها ودلالها وغنجها . وكان لا يعصى الشاه أمراً إذا داعبته بلطمة خفيفة »

ثم قال محدثي وقد لطم خده بيده : « أمان ! أمان ! إنني أكاد أشعر بوقع تلك اللطمات الآن »

وأخيراً اقتنع الرجل بأنه لم يكن لي دافع إلى تزويجها منه غير الرغبة في إسعاده . ثم دعاني إلى ضيافته ، وأن أتخذ مقامي في بيته مدة إقامتي في بغداد فقبلت منه ذلك مسروراً بلا تردد

حدثت هذه المناقشة بيني وبين عثمان أغا في الحجرة الخلفية من حانوت التاجر البخاري ، وقد سقاني عثمان أغا مقداراً وافراً من القهوة التي كان يستحضرها من مشرب جاره ، وبعد انتهاء الحديث عرض على الذهاب إلى حانوت ولده في نفس السوق بعد بضعة حوانيت

وكان اسم ابنه سليمان ، وكان سليمان هذا في

أثناء غياب أبيه قد تزيا بزى التجار ، وعاش عيشة طيبة ، جالساً طول يومه — عدا أوقات الصلاة — على مصطبة دكانه ، ومن حوله بضاعة مرصوصة رصاً بديعاً على رفوف مرتكزة على الحوائط وكان سميناً قصير القامة يشبه أباه أتم الشبه وحين علم أنني حاجي بابا رحب بي وهش في وجهي ونزع غليونه الذي كان يدخن فيه من فمه وناولني إياه

وقد رجوت أن أتمتع بعيش رغد ومقام طيب في بغداد في صحبة هؤلاء القوم الأخيار ولكي لا أظهر بمظهر العالة عليهم أخبرتهم بأن لدي خمسة وتسعين طوماناً واستشرتهم في أنجع وسيلة أتبعها لأربح منها في التاجرة وقلت لهم إنني قد تعبت من حياة التجارب وكثرة الطواف وإنني عزمت على أن أخصص وقتي وأقصر جهدي في المستقبل على الحصول على عيش ناعم بواسطة التجارة . وقلت كذلك إن كثيراً من الناس أدركوا الغنى وجمعوا أموالاً طائلة رغم ابتدائهم بحالة أصغر من التي أريد أن أبتدىء بها ووافقني عثمان أغا وولده على هـذا الرأي ، وعند ما انتهينا من أمر الثروة التي سأجمعها قال عثمان أغا بيت الشعر الذي وعاه أثناء رحلاته وهو :

« يسقط المـاء من بين الصخور نقطة فنقطة حتى يصير في النهاية بحراً » .

وحين وصلنا إلى هـذه النتيجة أخذنا وجهتنا عثمان أغا ونجله وأنا إلى المنزل الذي كان يقع على مسافة غير بعيدة من السوق .

« يتبع » عبد اللطيف النشار

بنـــك مصر

اكبر مؤسسة مالية مصرية

تنشىء الصـــناعات الكـبرى

وتؤسس الاستقلال الاقتصادى

عاملوه .. وعاملوا شركاته تكسبوا .. النصر لبلادكم

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المبدولي — عابدين)